مساهمة الترجمة في حوار الحضارات
(أمثلة من الحضارة العربية الإسلامية عبر العصور)

د. بسمة أحمد صدقي الدجاني
أستاذ مساعد في مركز اللغات بالجامعة الأردنية
bdajani@hotmail.com

ملخص

يهدف هذا البحث إلى دراسة دور الترجمة كشكل من أشكال التواصل والحوار بين الحضارات، مسلطاً الضوء على بعض التجارب العالمية الرائدة التي حظيت بمكانة متميزة في عالم الثقافة بعد ما تركته من آثار بارزة في مجتمعاتها المتلقية، ومستحضراً نماذج من الموروث التاريخي مما ألقت بظلالها في ثقافتنا المعاصرة.

Abstract

This research paper aims to study the role of translation as a form of communication and dialogue between civilizations. In the process, it spotlights some pioneering international experiences that have occupied an eminent stand in the world of culture, experiences that have left their mark on their receiving societies. It moreover recalls examples of the historical legacy in the domain of translation that has influenced our modern day culture.

وحدة التنوع البشرية:

إن وحدة التنوع سمة من سمات شريعة الخالق بين عباده، حيث تجلت مشيئته سبحانه وتعالى في اختلاف لغات الأقوام باختلاف أماكنهم وتباين أجناسهم. ولله في ذلك حكمته الإلهية التي تتجسد في قوله الحكيم:" ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين" (الروم آية 22). ومع هذا التنوع حث الله عباده على السعي نحو التعارف والتقارب وبذل الجهود في سبيل الوصول إلى نقاط اللقاء مع إدراك ما في الاختلاف من صعوبات، إلا أن الأجر محفوظ لمن يُحسن السعي. فيوجه سبحانه وتعالى خطابه في كتابه الجليل لعباده أجمعين قائلاً:" ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير" (الحجرات آية 13).

تعريف الترجمة في اللسان العربي:

وتفسير اللسان يتم عن طريق **الترجمان** الذي يترجم الكلام فينقله من لغة إلى لغة أخرى[1]. واللغة في علم الفيلولوجيا هي أصوات يُعَبِّر بها كل جيل من الناس عما في وجدانهم، وهي الكلام المصطلح عليه بين كل قوم. فأحياناً تكون الحاجة إلى الترجمة بين أبناء جيلين من أصل واحد لظهور مصطلحات حديثة اتفق عليها أبناء الجيل الواحد ولايعرفها الجيل الآخر.

قال المتنبي في إحدى قصائده:

تجمع فيه كل لسن وأمة فما تفهم الحداث إلا التراجم [2]

وقال في قصيدة أخرى:

ملاعب جنة لو سار فيها سليمان لسار بترجمان [3]

الترجمة فن أدبي:

وقد اندرجت الترجمة كعلم تحت الفنون الأدبية، فهي وإن كانت تتناول العلوم بفروعها الشاملة وتبحث في التخصصات الإنسانية جميعها، إلا أن تصنيفها العلمي وضعها في مصاف العلوم الإنسانية الأدبية الإبداعية. ومن هنا اكتسبت الترجمة البعد الإمتاعي الذي حدا بالبعض إلى وصفها من منظور أدبي قائلاً أنها في أحد جوانبها لقاء عاطفي وتجاوب كلي بين المترجم والنص الذي يعكف على ترجمته[4].

و**الأدب** بشكل عام واسطة للتواصل الحضاري ويتميز بداية باعترافه بوجود الاختلاف والتنوع بين الآداب ومظاهر الحياة الحضارية بين أُمَّة وأُخرَى، وبالنظر إلى هذا الاختلاف على أنه مظهر طبيعي لخصوصية كل أُمَّة. فيُبنَى الحوار على أُسس دعم الشخصية القومية وجذبها للتفاعل مع

البناء الأدبي العالمي، ولا يتطلب أبداً محو العناصر الذاتية للأُمم. فمن مبادئ العلاقة الراسخة بين العلم والثقافة واللغة أن الإبداع لا يكون إلا بتوطين العلم، وتوطينه لا يكون إلا باللغة القومية.

و**الحضارة** في أبسط تعريفاتها هي " نمط من الحياة يتميز بألوان من الرُّقي، وتقوم في دائرة من الاتساع المكاني والبشري والزماني، وتتضمن نُظماً ومؤسسات وقيماً ومعاني تنطوي الحياة عليها ". والحضارة بفعل ذلك كله تضم العديد من "الثقافات"، وعدداً من اللغات في " جامع مشترك " يتفاعل فيه الإنسان مع المكان والزمان، وكوَّنته عناصر " الدين بما يُوفره من رؤية كونية "، و " لسان جامع مشترك إلى جانب ألسنة أُخرَى " و " تاريخ وعادات ونُظم وقيم " في دائرة واسعة ينتمي إليها حضارياً كل البشر المقيمون في هذه الدائرة على اختلاف أقوامهم ومِللهم وأنماط حياتهم وشرائحهم الاجتماعية [5].

يُقَسَّم عالمنا اليوم إلى ثمان دوائر حضارية يُمكن التمييز بينها، تسود في كل منها حضارة غالبة لها خصائصها، فهناك الغربية بفرعيها الأوروبي والأمريكي الشمالي، والحضارة الأمريكية الجنوبية التي جاءت ثمرة تفاعل حضارة المستعمرين المستوطنين الغربية القادمين من شبه جزيرة أيبيريا مع حضارة سكان البلاد الأصليين مع الحضارة الأفريقية المتأثرة بالحضارة الإسلامية، وهناك الحضارة الصينية الكونفوشوسية، والحضارة اليابانية في أقصَى الشرق من آسيا، والحضارة الهندوكية في الهند، وهناك الحضارة الأرثوذكسية السلافية في روسيا وأوروبا الشرقية الجنوبية، وهناك الحضارة الأفريقية السائدة في جنوب الصحراء في قارة افريقيا، والحضارة الإسلامية بفروعها في آسيا وإفريقيا وامتدادها في اندونيسيا شرقا وحتى الأطلنطي في الغرب ومن كازاخستان شمالا إلى منابع النيل جنوباً [6].

تفاعل هذه الحضارات ما هو بالجديد فهو قائم منذ فجر التاريخ ومرتبط بدورة الحضارات؛ ارتقائها وانحدارها. وحضارتنا العربية الإسلامية شكلت في أوجها نموذجاً حيّاً بتفاعلها مع الحضارات الأخرى وخصوصاً من خلال اللغة العربية وآدابها، فالعربية لغة وثقافة رابطة أساسية إيماناً وعملاً بما أوصى به الله جل جلاله وصدره منهجاً لخلقه في الحياة الدنيا. وقد جاءنا في شريعتنا الإسلامية ما يؤكد على أهمية الاختلاف ووحدة التنوع في قوله سبحانه وتعالى: " وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون" (المائدة آية 48).

لقد صور بعضهم الترجمة بالسحر الحلال لقدرتها على نقلنا من عالم إلى آخر ومن حضارة إلى أخرى في غمضة عين[7]. والواقع أن الترجمة تمثل حركة أخذ وعطاء وتبادل في جميع المجالات بإتاحة اللقاء بين الثقافات والتفاعل بينها. وللترجمة أهمية كبيرة في تحقيق التقدم الحضاري والاقتصادي والاجتماعي وقد باتت نشاطاً مؤسسياً يومياً في حياة الأمم والشعوب الراقية يؤثر في كل أعمالها وخططها.

كما تُمثّل الترجمة وسيلة حاسمة في تعميق علاقات التواصل مع العالم المتقدم، وفي توسيع دوائر الحوار التي تؤدي إلى امتلاك مفردات العصر ولغاته، وكذلك في تجسير الهوة الفاصلة بين المتقدم والمتخلف. والترجمة هي السبيل إلى فتح آفاق جديدة من وعود المستقبل الذي لا حد لإمكاناته، وعلامة الانتساب إلى الحضارة العالمية في تنوعها الخلاق. ولذلك أصبحت درجة التقدم تقاس بدرجة ازدهار حركة الترجمة في هذه الأمة أو تلك، كما تقاس بشمول هذه الحركة في تعدد مجالاتها التي تصل الحاضر بالماضي في التطلع إلى المستقبل، وتصل العلوم الإنسانية بالعلوم البحتة في شبكة المعرفة البشرية التي تتوازن مكوناتها[8].

ففي روسيا السوفيتية مثلاً كلف لينين الأديب مكسيم جوركي بالإشراف على الترجمة، معلناً أن الترجمة تعادل في الأهمية كهربة روسيا [9].

لذلك فإن التعارف بالشعوب الأخرى ينبغي أن يبدأ في مرحلة مبكرة من الدراسة، وأن يتابع خلال مناهج التعليم حتى يبلغ أوجه في دراسة للحضارات المختلفة. فمع توسيع صورة العالم في الأذهان ومدها بأفكار الإنسانية جمعاء يوضع الإنسان في درجة أرفع وأغنى وأوسع أفقاً [10]. فكلما التقت ثقافة بأخرى تنشط الترجمة وتقوى، وتقرب بين ثقافات العالم وتسهم إسهاماً كبيراً في تعزيز التفاعل الحضاري الإنساني العام.

فالذات لا تتفاعل مع الذات مع تطابقهما، بل ولا يكفي الانتقال من الذات إلى الآخر عبر اختيار ما عند هذا الآخر ماهو على صورتنا أو واقعنا. على أن هذا الميل إلى المختلف لابد من أن يستند أولاً وأخيراً إلى مخزون ذاتي وتاريخي راسخ، لكي لا يتم أي تفاعل عبر فراغ، والنهضويون وصولاً إلى الحداثيين أدركوا لعبة التوازن هذه، بل لعبة الارتباط بهذا الموروث (أي الذات) ليتمكنوا من إحداث تغيير "موضوعي" في نص الآخر أيضاً. فبقدر ما يحدث الاحتكاك بالآخر عبر الترجمة من تغيير في تكوين الذات، بقدر ما يتم إحداث تغيير في نص الآخر. فالبنيوية لا تعود بنيوية ذات أثر غربي فحسب، بل تصير بنيوية عربية (بشروط الإبداع والمعالجة). والماركسية الأوروبية تصير عبر الماركسيين العرب ماركسية عربية. وهذا ينطبق على الرومانتيكية والسريالية والوجودية

والعبثية. فالنص الآخر المترجم يتم التفاعل به وتتجدد هويته وينتقل من "سلطة إلى سلطة"، ومن جغرافية إلى جغرافية، ومن مجتمع إلى مجتمع، ومن أفراد إلى أفراد، وعندها لايعود المختلف مختلفاً، تزول غربته، وعزلته، ليكتسب ألفة وحميمية، هما ألفة الإبداع وإعادة الصياغة، وإعادة التكوين. فعندما تقرأ كعربي مثلاً بيكيت أو شكسبير أو بودلير .... مترجمين، لا تتمثل نصوصهم عبر قوتها الخاصة وخلفياتها الخاصة، ومتونها الأصلية، بقدر ما تتمثل قراءة إبداعية أو دينامية، أو منفتحة تحمل في ثناياها أحاسيس هذا القارئ العربي، ومستواه الثقافي، وتكوين شخصيته، وآثار بيئته... وهنا تتحول النصوص إلى إبداعات القارئ يعيد كتابتها من جديد، أو تأليفها، أو تعديلها [11].

ولهذا يطلب الجاحظ [12] إلى من يرغب في تبوء عمل الترجمان (المترجم) ضرورة أن يكون بيانه في نفس الترجمة في وزن علمه في نفس المعرفة، وينبغي أن يكون أعلم الناس باللغة المنقولة والمنقول إليها حتى يكون فيهما سواء وغاية.

فالترجمة علم وفن. علم لخضوعها لمبادئ ومقومات أساسية، ولما تتميز به من اتجاهات مختلفة تنطلق من أصول ضاربة الجذور في التاريخ، وفن ببعدها الإمتاعي الإبداعي، وخاصة مع ترجمات الأجناس الأدبية [13].

تجربة هوميروس والإلياذة

عاش هوميروس في أواخر القرن التاسع قبل الميلاد بعد انتهاء حرب طروادة وقبل ازدهار الشعر الغنائي بقرون فاعتمد في وصفه لحوادث هذه الحرب على الروايات التي سمعها والآثار التي شاهدها في ربوع اليونان ثم وصف هذه الأحداث في لوحات تصور المجتمع الذي عاش فيه والحضارة التي عاصرها فسجل لليونان حياتهم فيما بين القرن الثاني عشر وأوائل الثامن قبل الميلاد وعرضها في قالب قصصي وأسلوب روائي يجمع بين الحقيقة والخيال.

لقد كان هوميروس لليونان معلماً ورسولاً جمع شملهم وتغنى بتاريخ أسلافهم فبعث نهضتهم وخلق منهم أمة قوية يؤمنون بدين واحد ويستخدمون لغة واحدة ويحتفلون بأعياد قومية جامعة. ولم يكن الاهتمام بهوميروس قاصراً على الأدباء والعلماء، ولكن فاقهم في ذلك الملوك والأمراء. أعجب به الإسكندر إعجاباً شديداً حتى إن الإلياذة أصبحت كتابه المفضل الذي لا يفارقه. واقتفى البطالسة أثره في تمجيد الشاعر، فاهتم بطليموس الثاني بجمع أشعاره، وأمر بطليموس الرابع بعبادته وتأليهه.

وكان هوميروس نموذجاً لشعراء الرومان أيضاً بدأوا بترجمته إلى لغتهم واعتبروا ملاحمه أول عمل أدبي يجب تلاوته. ولم يبدأ القرن الأول قبل الميلاد حتى أصبح تأثير هوميروس شاملاً في الأدب اللاتيني واضحاً في جميع المؤلفات. وزالت دولة الرومان وظهرت المسيحية وتبعتها النهضة

الأوروبية وبقي شعره يحتل أسمى منزلة حتى في عصور الجهالة والظلمة التي انقرضت فيها اللغة اليونانية. فكان الناس يتلونه في الترجمات اللاتينية ويعجبون بأفكاره. أما نقاد إنجلترا أمثال دريدن وبوب فكانوا من عشاق هوميروس قضوا كل حياتهم في نقد أشعاره وترجمتها ترجمة رائعة جديرة بالأصل اليوناني، ونفس الشيء حدث في فرنسا وألمانيا [14]

وقد احتفلت الرموز الثقافية للأمة العربية وعلى امتداد الوطن العربي كله منذ مئة عام بصدور ترجمة سليمان البستاني للإلياذة هوميروس الخالدة، فقد كانت تلك المرة الأولى التي يقوم فيها عربي بتقديم ترجمة كاملة، نظماً، لإحدى الملاحم الأوروبية الأساسية، ولايكتفي بالترجمة المنظومة، وما صحبها من جهد مضن في تطويع اللغة العربية لتأدية المعتقدات الأسطورية والمجازات اليونانية، بل يقدم للترجمة بدراسة موسوعية شاملة عن هوميروس وشعره، مع بحث عميق مقارن حول أوجه الاتفاق والاختلاف بين آداب العرب واليونان، مؤكداً أهمية الحوار المتصل بين تراثه العربي وتراث غيره من الأمم. وكان البستاني واعياً بدوره من حيث هو وسيط متميز يصل قراءه العرب بالثقافة الإنسانية التي ينتمون إليها، والتي يضيف بها إلى وعيهم ما يزيده ثراء وتنوعاً، فاتحاً أمامهم أفقاً معرفياً وإبداعياً ظل مغلقاً لقرون عديدة. ولذلك أسهم البستاني إسهاماً أصيلاً في تأسيس نهضة ثقافية، كانت -ولا تزال– سبيلاً إلى التقدم الذي يستبدل الانفتاح بالعزلة، والبراح الإنساني بالتضييق الاعتقادي والتعصب العرقي [15].

تجربة كنفشيوس في"الكتب الخمسة "

كانت الدراسات التاريخية أهم الدراسات السائدة في الصين في القرن السادس قبل الميلاد، ذلك أن الصين كان بها حضارة يانعة مزدهرة في جميع الميادين السياسية والاقتصادية والثقافية في القرن العشرين قبل الميلاد. وحدث بعد ذلك أن انحطت الأحوال في الصين ابتداء من القرن العاشر، وتغيرت اللغة الصينية تغيراً كبيراً في تلك الفترة بحيث أصبح رجل القرن السادس قبل الميلاد غير قادر على قراءة مؤلفات الحضارة الصينية العتيقة مما أدى إلى شبه انقطاع تام بين حضارة الصين العتيقة وبين أجيال القرون الأولى قبل الميلاد. لذلك ركز كنفشيوس الملقب بنبي الصين جهوده في نقل هذا التراث القديم إلى لغة الصين الجديدة آنذاك مضيفاً إليه أجزاء لاشك في أصالتها في الحكمة والمعرفة. وكان تلاميذ كنفشيوس يلقبونه باسم " معلم الجنس البشري " [16].

واستمرت فلسفة كونفوشيوس تتحكم في الحياة الصينية قرابة عشرين قرناً. فالكونفوشية هي مجموعة من المعتقدات والمبادئ في الفلسفة الصينية تتمحور في مجملها حول الأخلاق والآداب وطريقة إدارة الحكم والعلاقات الاجتماعية. ووفرت المبادئ الأساسية التي قامت عليها النظريات

والمؤسسات السياسية في الصين ثم انتشرت هذه المدرسة إلى كوريا واليابان وفيتنام، وأصبحت ركيزة ثابتة في ثقافة شعوب شرق آسيا. وعندما تم ادخالها إلى المجتمعات الغربية جلبت الكونفوشيوسية انتباه العديد من الفلاسفة الغربيين.

العرب والترجمة

تنقل الأخبار معرفة بعض العرب بلغات جيرانهم، أو كونهم على صلة بأصحاب لغات غير لغتهم، ومن ذلك ما روي عن امرئ القيس ونزوله على قيصر ملك الفرس طالباً النصر لاسترجاع ملك أبيه [17]، وكذلك ما روي عن أمية بن أبي الصلت الذي كان يحكي في شعره قصص الأنبياء ويقرأ الكتب المتقدمة، وأتى بألفاظ كثيرة لا تعرفها العرب [18]. وما جاء في السيرة النبوية من أن الرسول صلى الله عليه وسلم أمر زيد بن ثابت بتعلم العبرانية والسريانية، فتعلمها ليكتب لليهود بلغتهم [19]. وذكر الفيروزابادي أن المبارك بن المبارك بن سعيد النحوي أبو بكر الدهان [20] كان يتكلم بالفارسية والرومية والتركية والزنجية والحبشية بأفصح كلام [21].

ففي إطار الحضارة العربية الإسلامية كان كثير من النحويين واللغويين يؤلفون بالعربية، ويعرفون الفارسية أو التركية. فسيبويه صاحب أقدم كتاب وصل إلينا في النحو العربي كانت لغته الأصلية هي الفارسية [22]. كما كان ابن عباس [23] أول فقيه لُغوي بارع واع بالكلمات الأجنبية، وقد بعثه اهتمامه الأول بالقرآن الكريم إلى أن يبحث في تأصيل مفرداته، ويرجع إليه وإلى مدرسته الفضل في استخراج عدد من الكلمات القرآنية ذات الأصل الأجنبي [24] فقد نسب إليه كتاب اللغات في القرآن الذي ذكر فيه مجموعة من اللغات كالنبطية والرومية والعبرانية وغيرها من اللغات [25]، وكذلك كتاب لغات القبائل الواردة في القرآن المروية عنه الذي أصَّل فيه لمجموعة من لُغات الجزيرة العربية واللغات الأجنبية معزوة بأسمائها [26].

القرآن الكريم

أما ترجمة **القرآن الكريم** فتعود إلى زمن نزول الوحي حيث يروى عن الصحابي سلمان الفارسي ترجمته للبسملة وسورة الفاتحة لأبناء قومه من الفرس الذين لا يعرفون العربية وقراءتهم لها في صلواتهم إلى أن لانت ألسنتهم للعربية. ويروي الجاحظ خبراً عن قاص من قصاص البصرة ووعاظها وهو موسى بن يسار الأسواري فيقول: كان من أعاجيب الدنيا، وكانت فصاحته بالفارسية في وزن فصاحته بالعربية وكان يجلس في مجلسه المشهور فتقعد العرب عن يمينه والفرس عن يساره فيقرأ الآية من كتاب الله ويفسرها للعرب، ثم يحول وجهه للفرس فيفسرها لهم بالفارسية فلا يدري بأي لسان هو أبين [27].

بعد أن ظهرت الحاجة الملحة لتقديم أفكار القرآن ومعانيه إلى شعوب الأمم لمن أسلم منها ولمن يرغب في التعرف إلى ما يتضمنه من تنظيم سياسي واجتماعي وتربوي وأخلاقي نشأت ثلاثة أنماط من الترجمة:

* مثلت الترجمات الشرقية النمط الأول وهي الترجمات إلى لغات الأمم الشرقية كالفارسية والتركية والأردية والجاوية والبنغالية. وقد تم أغلبها على أيدي مترجمين مسلمين فتوفرت فيها النظرة القدسية لكتاب الله الحكيم.

* ومثلت الترجمات إلى اللغات الأوروبية النمط الثاني، حيث دعى رجال الدين من القساوسة والرهبان إلى ترجمته أولاً قبل دراسته ومناقشته. فتم أغلب الترجمات اللاتينية في العصور الوسطى ابتداء من القرن الحادي عشر الميلادي على أيدي غير المسلمين ولم تظهر روح التقديس والإجلال التي وجدت في الترجمات الشرقية فيها. ثم نشطت حركة الترجمات هذه على أثر اندحار العرب في الأندلس ونشوء الحروب الصليبية. وانتقلت معاني القرآن الكريم إلى اللغات الأوروبية عن طريق الترجمة اللاتينية مع بداية القرن السادس عشر الميلادي [28]. إلا أن الأوروبيين وقفوا في تحليلاتهم وتعقيباتهم طويلاً عند آيات التشريع والميراث والقانون والتنظيم الاجتماعي وأحوال المرأة ونظام الأسرة والزواج في الإسلام أكثر مما استوقفتهم آيات العبادات.

* وتمثل النمط الثالث في ترجمات مغرضة في أواخر القرن العشرين لمواجهة حماسة الراغبين في دخول الإسلام للتعرف إلى معاني القرآن وأفكاره. فقُدمت لهم نسخاً مشوهة من النص القرآني وتفاسيره وحذفوا الآيات المتعلقة بالجهاد ومقاتلة الكفار. وعند توزيع هذه النسخ على مسلمي افريقيا، تنبه المسلمون إلى هذه المكيدة وجمعوا ما أمكنهم منها وبدلوها بنسخ قرآنية مدققة.

كما ظهرت نتائج عكسية لما أطلقته الولايات المتحدة الأمريكية مؤخراً من الحرب على الإرهاب حيث ازدادت رغبة أبناء الحضارة الغربية في التعرف إلى الفكر الإسلامي وزادت مبيعات نسخ القرآن المتوفرة وتوزيعه مجاناً على من يرغب في معرفة دستور المسلمين الأول. وهكذا نشطت حركة ترجمته على أساس قدسي من جديد [29].

حظ الجاحظ من الترجمة

و**الجاحظ** أديب العربية الأكبر في العصر العباسي، هو الرجل الذي تمثل ثقافات عصره، ومثَّلها خير تمثيل في كتبه الكثيرة المتنوعة. وكغيره من متكلمي عصره كان مطلعاً على ما تُرجم إلى العربية من الثقافات الفارسية والهندية، ومن آثار اليونان في العلم والفلسفة، ومنها كتاب الحيوان لأرسطو، مما شجعه على تأليف **كتاب الحيوان** [30] الذي هو الأول من نوعه في اللغة العربية [31]. كان

الجاحظ يقرأ للعلماء الأجانب بالإضافة إلى أرسطو معلمه أفلاطون وأبقراط وبطليموس وجالينوس حيث ورد ذكرهم في كثير من مواضيع كتابه "الحيوان ". غير أنه مما استوقف نظر بعض الدارسين أن الكُتّاب الغربيين الذين أرَّخوا للعِلم لم يُشيروا إلى الجاحظ كعالم! وفي رأيهم لو أن كِتاب "الحيوان" بُوِّب وصُنِّف وعُصِر وأُقتبست منه تلك العبارات الوصفية والأسماء الفصيحة، ووُضع لها ما يُقابلها من لُغات الغرب التي ننقل عنها، لكانت عَوناً كبيراً للمترجمين، ولساعدت على إحياء تراث إنساني ثمين [32].

ولم تقتصر معرفة العرب المسلمين على اللغات الأخرى، بل نافسهم علماء العرب من اليهود والنصارى الذين نشأوا وترعرعوا في ظل الثقافة العربية فأصبحوا جزءاً من نسيجها، فأكثرهم مضطر بحكم دينه إلى إتقان لغة أخرى غير العربية على الأقل كالعبرية والسريانية، بل كثير منهم يعرف لغات أخرى خارج عائلة الساميات، كالفارسية والهندية واليونانية، واشتغلوا بمجال الترجمة، واشتهرت منهم مجموعة من الأُسر [33].

بيت الحكمة والترجمة

نستذكر هنا بغداد ومكتبة بيت حكمتها التي أسسها هارون الرشيد [34] وازدهرت لتصبح رمزاً للنهضة الثقافية العربية الإسلامية في عهد المأمون [35]. فقد سجلت صفحات التاريخ للرشيد حرصه على الحفاظ على مكتبات المدن التي وصل عماله إليها مثل عمورية وأنقرة، وتعيينه جماعة تجيد اللغتين اليونانية والآرامية للنظر في محتوياتها واختيار النادر منها ليودعه **بيت الحكمة** [36]. بل إن المأمون أغدق أموالاً طائلة على المترجمين الذين نقلوا علوم الأمم الأخرى، ولا يخفى ما لهذا من أثر بالغ في التشجيع على الترجمة الأمر الذي كان يغذي المكتبة العربية ويرفدها لاسيما إذا قدرنا عدد المؤلفات التي اتكأت على الكتب المترجمة، وحجم الإضافة التي قدمتها تلك المترجمات للمتون العربية.

وقد دار حوار الحضارات تحت سقف مكتبة بيت الحكمة حيث إن غالبية الذين تولوا أمر إدارتها وأشرفوا على حركة الترجمة فيها كانوا علماء من مختلف الثقافات والأديان: من السريان والمجوس واليهود والنصارى والعرب والمسلمين وغيرهم. وكانوا جميعاً يحظون بمنزلة رفيعة عند الخلفاء وفي مجتمعاتهم، ويؤخذ بآرائهم ويمارسون شعائرهم بحرية تامة ويناظرون المسلمين في الأمور الدينية [37]. فتيسر للعرب في وقت قصير (بعد عهد المأمون – القرن العاشر الميلادي) أن يستوعبوا تراثاً فكرياً أنتجته ثلاث حضارات راقية: يونانية وفارسية وهندية، وذلك بعد أن اقتبسوه وتمثلوه وأنشأوا من خلاصته وثمار جهودهم نهضة علمية هائلة [38].

قامت الحضارة العربية الإسلامية في القسم الشرقي من العالم الإسلامي على اللغتين العربية والفارسية حيث ظهر إبداع أهل الأدب والعلم والثقافة في كتاباتهم باللغتين للعمل ذاته أحياناً من أمثال ابن سينا والغزالي والرازي وغيرهم. وحافظت العربية على مكانتها كلغة الثقافة في ذلك العصر مع ظهور النزعة الفارسية، والاتجاه إلى إحياء اللغة الفارسية. وقد كان للنزعة الشعوبية أثرها في حفز كثير من الفرس على تأليف ملاحم الشاهنامة التي نظموها متغنين فيها بأمجاد آبائهم، ومدفوعين بتسجيل مآثرهم، كما كان لها أثر كبير أيضاً في دفع عجلة حركة الترجمة التي نقلت أمهات الكتب وروائع الأدب الفارسي إلى العربية رغبة منهم في أن يقفوا جنباً إلى جنب مع العرب على الساحة الثقافية في ذلك الوقت، ثم أن يضعوا بين يدي العرب شيئاً متميزاً من إنتاجهم الأدبي [39].

الترجمات العالمية لكليلة ودمنة

ومن بدايات التراجم كانت الأمثال التي نشأت في الشرق موطن الحُكم المُطلق والاستبداد العنيف حيث انبعث في نفوس الضعفاء المستعبدين صدى خافتاً لاحتجاج مكظوم صامت لم يجدوا له متنفساً ولا طريقاً إلى آذان الطغاة إلا هذه الكنايات والرموز يسترون وراءها ما يريدون من نصح وعظة. وقد بدأ ظهور هذا النوع في الهند ثم انتقل منها إلى الصين ثم إلى فارس فبلاد العرب فبلاد الإغريق. وأقدم ما عرف منه أمثال لقمان الحكيم، وإيزوب الرومي، وبيدبا الهندي. وأشهر من كتب فيه من أدباء العربية ابن المقفع[40] مترجم **كليلة ودمنة**. وهذا الكتاب من خيرة الكتب في تقويم الأخلاق بالعظة ورياضة العقول بالحكمة. وضعه باللغة السنسكريتية بيدبا الهندي لدبشليم الملك منذ عشرين قرناً ونيفا على ألسنة البهائم والطيور، وعقده على اثنى عشر باباً ثم ترجم إلى الفهلوية، ونقله ابن المقفع عنها إلى العربية [41]. وقليل من الكتب نال من إقبال الناس وعنايتهم ما نال هذا الكتاب. فقد تنافست الأمم الجادة في ادخاره منذ كتب، وحرصت كل أمة أن تنقله إلى لغتها، فليس في لغات العالم ذات الآداب لغة إلا ترجم هذا الكتاب إليها، وبحق عنيت الأمم بهذا الكتاب العجيب الذي يحوي من الحكم والآداب وضروب السياسة وأفانين القصص ما يملأ القارئ عبرة وإعجاباً وسرورا. وقد اتسمت ترجمة ابن المقفع للكتاب بخصوصية ظرفها الزماني والمكاني حيث أضاف ابن المقفع بعض القصص من نسج تأليفه وعَدَّل في بعضها، وأكسب المترجم منها روحاً جديدة أضافها أسلوبه المشوق وعرضه الرائع [42].

وتشير بعض كتب التاريخ التي أُلفت في القرون الأولى الهجرية إلى كتاب تاريخ كبير كُتب بالبهلوية وكان موجوداً في إيران قبل الفتح الإسلام هو كتاب " **خداي نامه** " أو (خداي ناماه). وقد جمع هذا الكتاب تواريخ وسير ملوك إيران وأُلّف في أواخر العصر الساساني وعرف في الأدب البهلوي باسم

(خوتاي نامك) وليست كلمة (شاهنامه) أو كلمة (خداينامه) إلا ترجمة فارسية للاسم البهلوي. وكانت أقدم وأشهر ترجماته إلى العربية ترجمة ابن المقفع، وقد عرفت هذه الترجمات باسم تاريخ ملوك الفرس، أو سير ملوك الفرس، أو سير الملوك، وهي تسمية تطابق موضوع الكتاب، وأصبح سير الملوك مرجع المتأدبين وطلاب الثقافة العالية بين العرب والفرس على السواء. يقول الجاحظ: "ومن احتاج إلى العقل والأدب والعلم بالمراتب والعبر والمثلات والألفاظ الكريمة والمعاني الشريفة فلينظر إلى سير الملوك" [43]. وما عبد الله ابن المقفع إلا واحد من مجموعة من الأدباء والعلماء الذين ساهموا في حركة الترجمة تلك. ولا يخفى ما قدمته تلك الترجمات من إضافات جديدة إلى الأدب العربي في الشكل والمضمون فزاد به ثراءً وغنىً.

تجربة ألف ليلة وليلة:

أما "**ألف ليلة وليلة** " ذلك الكتاب الأسطوري الكبير فأصله على الأرجح كتاب صغير للفرس دعوه (هزار أفسانه) وبنوه على حكاية الملك والوزير وابنته شهرزاد وجاريتها دنيازاد. وقد ترجمه العرب من الفهلوية إلى العربية آخر القرن الثالث للهجرة، ثم دعاهم الإعجاب به إلى توسيعه وتفريعه فأضافوا إليه ما شاكله من أساطير العرب والهنود واليهود وأخبار الخلفاء والأمراء والفرسان والأجواد في الجاهلية والإسلام. وبقي بابه مفتوحاً للزيادة عليه حتى القرن العاشر للهجرة. وتضاءل مافيه من وضع الفرس حتى فنى فيما وضع العرب من أقاصيص. ومزية الكتاب تمثيله لأخلاق العرب والمسلمين وعاداتهم وأنظمتهم في العصور الإسلامية الوسطى بالعراق ومصر والشام مما يفيد الكاتب الإجتماعي والفيلسوف المؤرخ. ومن ثم عنى به الفرنجة عناية خاصة فترجموه إلى لغاتهم وأفردوه بأبحاثهم [44].

وأصبح " ألف ليلة وليلة" رمزاً من الرموز الأدبية العربية يهتدي به الروائيون والقصاص العرب ويستمتع بقراءته العربي ويجذب إليه القارئ الأجنبي. فهو بحق تجربة رائدة تركت أثراً بارزاً في المجتمع المتلقي إلى يومنا هذا.

تأثير قصائد حافظ الشيرازي المترجمة

كما كان لقصائد **"حافظ الشيرازي"** [45]- أكبر شعراء الفارسية- تأثيرها القوي في التقريب بين المسلمين والبراهمة في الهند على ما بينهم من صراع حيث هيمن شعره على العراق وفارس باسطاً سلطانه ما بين بغداد والبنغال.[46] وبرزت في شعره الروح الإنسانية-العرفانية التي تجاوزت المظهر العنصري القومي الضيق الموجود عند بعض شعراء الشعوبية الفارسية، بل يظهر بوضوح تقديره للغة العربية وآدابها التي نهل منها وتأثر بها، ودراسته للشعر العربي الجاهلي والأموي

والعباسي وحفظه القرآن الكريم مع التجويد بقراءات متعددة. ثم امتد سلطان حافظ من الهند إلى إنجلترا مع سيطرة الاستعمار البريطاني على الهند في القرن الثامن عشر. وتُرجمت غزلياته إلى الإنجليزية شعراً ونثراً وتبعتها ترجمات إلى الألمانية. وقد قام الشاعر الألماني "غوته" بإهدائه ديوانه "الغربي الشرقي" تعبيراً عن شدة تأثره به. وعبَّر الفيلسوف " نيتشه" عن إعجابه بالشيرازي بتوجيه خطابه له قائلاً: " أنت ذاتك: لاشيء وكل شيء، في غاية الفقر أنت، أغنى من الوجود، وتحترق في نار كمالك فتخرج من النار في كل مرة وأنت أكمل " [47].

الفارابي واللغات

وقد بلغت شهرة العالم الإسلامي **الفارابي**[48] في إجادة عدد كبير من اللغات الأجنبية درجة منقطعة النظير، حتى لقد ذكر كثير من المؤرخين أنه كان يعرف سبعين لغة. وهذا الرقم يدل على مبلغ شهرته بين معاصريه بتمكنه من معظم لغات الكتابة والحديث السائدة في عصره، وخاصة التركية – وهي لغته الأصلية – والفارسية واليونانية التي يتحدث عنها في كتبه حديث العالم الخبير. وقد وصل في إحاطته باللغة العربية وهي ليست لغته الأصلية أنه كان ينظم بها الشعر. وهو يعتبر المؤسس الحقيقي للدراسات الفلسفية في التاريخ الإسلامي، والمنشئ الأول لما نسميه الآن " الفلسفة الإسلامية " فقد أشاد بنيانها ووضع الأساس لجميع فروعها وهو أعرف فلاسفة الإسلام بتاريخ الفلسفة ونظريات الفلاسفة فهو يتحدث في مؤلفاته حديث الخبير عن المدارس اليونانية ويبين الفوارق بينها ويحاول التوفيق بين أفلاطون وأرسطو [49].

انتشرت العربية بسرعة فائقة في شبه الجزيرة الأيبيرية تبعاً لسرعة انتشار الإسلام فقد كان الفتح لغوياً حضارياً؛ كما كان في الوقت نفسه سياسياً دينياً، وقد كان لهؤلاء العرب الوافدين في شكل موجات كبيرة أثر كبير في نشر اللغة العربية. ولاشك أنه يضاف إلى ذلك إقبال أهل شبه الجزيرة أنفسهم على اللغة العربية لافرق في ذلك بين مسلم وغير مسلم؛ نظراً لكونها لغة الحضارة الغالبة والعلم المتفوق. وهكذا يبدو أن عملية التعرب أو الاستعراب كانت تسبق الإسلام في كثير من الأحيان، فقد تمازج العجم بالعرب المسلمين واختلطوا معهم في لغتهم وأساليبهم في الحياة، وتبعاً لعوامل التأثر والتأثير كان يسلم منهم من يسلم شيئاً فشيئاً [50]

أبو حيان الأندلسي مفسراً بعدة لغات

و**أبو حيان الأندلسي** [51] صاحب البحر المحيط في تفسير القرآن الكريم كان ملماً ببعض اللغات الأجنبية كالحبشية، والفارسية، والتركية، وقد ألف في قواعد هذه اللغات فألف في التركية: (الإدراك في لسان الأتراك) و (زهو الملك في نحو الترك)، و (الأفعال في لسان الأتراك)، وألف في

الفارسية (منطق الخرس في لسان الفرس)، وألف في الحبشة (جلاء الغبش عن لسان الحبش)[52] و (مقارنة بين اللغتين العربية والحبشية) [53].

دور شروحات ابن رشد لأرسطو

حكى أبو الوليد **ابن رشد** [54]: قال له أبو بكر ابن الطفيل[55] يوماً: سمعت اليوم أمير المؤمنين السلطان أبي يعقوب يوسف[56] يتشكى من قلق عبارة أرسطوطاليس أو عبارة المترجمين عنه ويذكر غموض أغراضه ويقول: لو وقع لهذه الكتب من يُلخصها ويُقرب أغراضها بعد أن يفهمها فهماً جيداً لقرب مأخذها على الناس؛ فإن كان فيك فضل قوة لذلك فافعل، وإني لأرجو أن تفي به لما أعلمه من جودة ذهنك وصفاء قريحتك وقوة نزوعك إلى الصناعة، وما يمنعني من ذلك إلا ما تعلمه من كبرة سني واشتغالي بالخدمة وصرف عنايتي إلى ما هو أهم عندي. فقال أبو الوليد ابن رشد: فكان هذا الذي حملني على تلخيص ما لخصته من كتب الحكيم أرسطوطاليس [57].

كتب ابن رشد ثلاثة شروح لمؤلفات أرسطو، وأُدخلت كتبه في منهاج جامعة باريس والجامعات الأخرى حتى مجيء العلوم التجريبية الحديثة. يعد " الجامع" الأقصر من بينها ويمثل خلاصة للموضوع واستند إليه في تعليم الطلبة المبتدئين، ثم كتاب "التلخيص" أوسطها حجماً وتم اعتماده في تدريس الطلبة الذين لديهم إلمام بالموضوع، وكتاب "التفسير" ثالثها وخصص لتدريس طلبة الدراسات العليا وطالت فيه شروحه مع إسهام أصيل بسبب اعتماده إلى درجة كبيرة على تحليل ابن رشد مع تفسيراته للمفاهيم القرآنية.

أسهم ابن رشد بكتابات في حقول الفلسفة والمنطق والطب والموسيقى والفقه، وله كتاب هام بعنوان " كتاب الكليات في الطب" أتمه قبل عام 1162م واشتهرت ترجمته اللاتينية بعنوان "Colliget" أي الكلية أو المجموعة، وفيه ألقى ابن رشد الضوء على مختلف جوانب الطب بما في ذلك التشخيص وعلاج الأمراض والوقاية منها. ووصلت مؤلفاته في الطب إلى عشرين كتاب.

يُعدُّ ابن رشد أحد أعاظم المفكرين والعلماء في القرن الثاني عشر حيث ترجمت مؤلفاته إلى لغات شتى منها اللاتينية والإنجليزية والألمانية والعبرية. وحسب قول فيليب حتي فقد أثر ابن رشد في الفكر الغربي من القرن الثاني عشر حتى القرن السادس عشر. وحظي بتقبل عظيم في الغرب، وما يزال يوجد من مؤلفاته سبعة وثمانون كتاباً.

تأثير تجربة ابن طفيل

أما عن تأثير قصة **"حي بن يقظان"** لابن طفيل في أوروبا فيمكن القول أنها كانت أوفر الكتب العربية حظاً من التقدير والعناية والتأثير في أوروبا في العصر الحديث [58]. فهناك تشابه يلفت

الانتباه بين كتاب الأب اليسوعي جرثيان Baltazar Gracian الذي نشر في سنة 1650م بعنوان El Criticor ،لكن يبرز تساؤل كيف عرف جرثيان بقصة حي بن يقظان وترجمة بوكوك لم تظهر إلا سنة 1681م ولم ينشر النص العربي إلا في سنة 1681م، وجرثيان لم يكن يعرف العربية!

ويظهر كذلك التشابه بين "حي بن يقظان " و قصة "روبنسون كروزو" لـ Daniel de Foe والتي نشرت سنة 1719م أي بعد ظهور ترجمة بوكوك، ويبدوالتأثر بها في الفكرة العامة. وها هي تتوالى الدراسات حولها في أوروبا منذ منتصف القرن التاسع عشر حتى الآن بمختلف اللغات.

تمثل الرحالة لتجربة ابن بطوطة

لقد اقترن الحديث عن ماركو بولو البندقي بالحديث عن **ابن بطوطة** الطنجي لدى كل الذين اهتموا بالرحالة، وخاصة عند علماء الغرب. وقد كان من حقهم أن يفعلوا، فإن الأول هو الذي قصد – قبل نحو ستين سنة من تحرك ابن بطوطة، بلاد الشرق الأقصى وسجلت مذكراته التي كانت محل تعليق واسع.. لكن الملاحظ أن رحلة ابن بطوطة اتسع فضاؤها أكثر مما كان الأمر بالنسبة لرحلة ماركو بولو علاوة على الحصيلة العلمية التي كانت تختلف من الواحد إلى الآخر. فمن الملاحظ أن ابن بطوطة كان يتأقلم بسرعة زائدة، فهو يتعلم اللغة التي يتكلم بها القوم الذين ينزل بساحتهم.. وقد بدأ يفهم اللغة الفارسية قبل أن يتعلم التركية، لأن الفارسية كانت منتشرة في المنطقة كلها حتى في بلاد الصين ويكتب اللغتين بحروف عربية على ما كان عليه الحال.. وفي سائر الحالات فإنه لم يكن يشعر بمركب نقص وهو يستعين بترجمان ينقل عنه ما يريد أن يقول، وفي هذا الصدد ساق بعض النكت التي وقعت له مع بعض التراجمة من الذين يدعون أنهم يحسنون اللغة! [59]

تفوق رحالة طنجة على رحالة البندقية لأنه استطاع أن يمتزج مع سكان البلاد التي وصلها عن طريق المصاهرات، وعن طريق الوظائف السامية التي تقلدها والاتصالات التي كان يجريها مع مختلف الأوساط. وقد كان المستشرق العالم الألماني بوركهارت أول من أثار انتباه أوروبا لرحلة ابن بطوطة في أعقاب المهمة التي كلف بها في افريقيا عام 1809. وأنصف بوركهارت الرحالة المغربي ابن بطوطة عندما أضفى عليه النعت بأعظم رحالة يقوم بتسجيل مذكراته في العصر الوسيط، وهي الشهادة التي زكاها البروفيسور أندري ميكيل بعد قرن وثلاثة أرباع القرن على نحو ما كان من الكاتب الإنجليزي أبيركرومبي والأكاديمي الفرنسي جان دورميصون [60].

ذكر المستشرق الروسي أ. يو. كراتشكوفسكي (ت1951) في كتابه القيم " تاريخ الأدب الجغرافي العربي " الذي ترجمه صلاح الدين عثمان هاشم، الرحالة ابن بطوطة قائلا: إنه منافس خطير لمعاصره الأقدم منه تاريخاً ماركو بولو، ومن الطبيعي أن ابن بطوطة الطنجي كان له إحساس

فطري ذاتي بظروف حضارة العالم الذي يصفه أكثر مما كان لدى ماركو بولو البندقي وإن وصف الرحالة المسلم لخط سير رحلته كان أدعى إلى الثقة مما عليه الحال مع معاصره المسيحي.

وقد تهافتت جهات كثيرة ممن تنتمي للعالم الناطق باللغة الإنجليزية على الاستفادة من الرحلة بعد ظهور الترجمة الإنجليزية منذ أواخر العشرينات على يد الأستاذ هاميلتون أليكساندر روسكين كيب الذي لم يكتف بالترجمة الحرفية ولكنه كان يحاول أن يصل إلى أسرار المعنى بل وقام بتحديد طائفة من الأعلام الجغرافية ومواقعها ما أمكنه ذلك. كما قام بالعمل على التعريف بعدد من الشخصيات التي وردت في صلب الكتاب ذاكراً في أغلب الأحيان مصادره ومراجعه. ويصح القول بأنه لا يمكن للمهتم برحلة ابن بطوطة أن يستغني عن المجهود الذي بذله هذا الرجل في سبيل تصحيح ما قام به السابقون مما تم الاستفادة منه لاحقاً بطبيعة الحال. وهكذا اتسعت دائرة المعرفة بها والاطلاع عليها أكثر فأكثر.

قرأ الناس ترجمة الرحلة كلا أو بعضاً بعدد من اللغات الأخرى غير الفرنسية والإنجليزية، مثل الألمانية والتشيكية والإيطالية والتركية والفارسية والسويدية والهندية والأرمنية واليابانية والإسبانية والروسية والصينية. والجدير بالذكر أن معظم هذه الترجمات – إن لم يكن كلها – تصحب بتعليقات لاغنى عنها للقارئ، بل أكثر من هذا فائدة أن بعض الأساتذة المترجمين قاموا بوضع مقدمات لكل جزء من الأجزاء حتى يجعلوا القارئ الأجنبي عن العربية في الصورة الكاملة لفهم العالم الإسلامي وتقاليده، ولفهم تاريخ دوله على ذلك العهد.. ومؤخراً في عام 1991 قام الأستاذ توماس ج. ايبركرومبي برحلة فريدة من نوعها سار فيها على خطى ابن بطوطة بتكليف من المجلة الأمريكية الذائعة الصيت: "ناشيونال جيوغرافيك " ووصلت تكاليف الرحلة إلى مئة ألف دولار على الأقل! [61]

يقول د. عبد الهادي التازي فخورا أنه لم يسمع في الدنيا عن رحلة نقلت من لغتها الأصلية إلى لسان ثان ثم ترجمت من ذلك اللسان الثاني لتعود إلى لغتها الأولى بصياغة حديثة، فقد تحقق ذلك في رحلة ابن بطوطة التي ترجمها غيرمو غوستافينو عن الإسبانية بأسلوبه العربي الذي كان يرى أنه أكثر إثارة وأوفى إشارة [62].

نشأة الحياة على الأرض لأوبارين A.I.Oparin

العالم السوفيتي الطبيعي الكسندر إيفانوفيتش أوبارين وقد ذاع صيته في الأوساط العلمية المعاصرة في العالم أجمع كمؤسس نظرية نشأة الحياة على الأرض التي ضمنها كتابه المذكور. وقد نشر آراءه باللغة الروسية في العشرينيات من القرن الماضي. ثم في الثلاثينيات نشر كتابه وترجم إلى

عديد من اللغات المعروفة، وامتد أثره خارج الاتحاد السوفيتي فنشأت في أوروبا وأمريكا مدارس جديدة للبحث آزرته وأيدت وجهة نظره.

وكان الأثر الذي أحدثته نظرية أوبارين في تاريخ العلوم لا يقل شأناً عن الأثر الذي أحدثته نظرية داروين من قبل في تطور الكائنات الحية [63]. فتستحق أن تسجل كتجربة رائدة تركت أثراً بارزاً في المجتمع المتلقي.

هل يمكن فرض لغة عالمية مشتركة واحدة؟

ولنا أن نقف أمام محاولة تطبيق لغة عالمية مشتركة تحت فرضية إلغاء التمييز اللغوي بين أبناء الحضارات والقوميات المختلفة حين ابتدع الغرب **لغة الأسبرانتو** التي تم طرحها في بيان براغ عام 1886 كمشروع لغة إتصال دولية وظيفتها التقريب بين الناس عبر الحواجز اللغوية والثقافية. وكان هدف التحرير الإنساني وتحقيق الديمقراطية ضمن المحاور الأساسية التي جاءت في هذا البيان بهذا الشكل:" تنتج كل لغة للمتكلمين بها حرية وأسراً ففي حين أنها تسهل لهم الاتصال فيما بينهم لا تمكنهم من الاتصال بالآخرين.. أما الاسبرانتو فتسهل لكل إنسان المشاركة كفرد من الجماعة البشرية مع جذور راسخة في حضارته المحلية وهويته اللغوية دون أن تحده بها". وقد قام صانع هذه اللغة "لودفيغ اليعزر زامنهوف" بترجمة بعض الفنون الأدبية إلى الإسبرنتو وكتابة أدب أولي بها كما طبع كتاباً لنحوها في وارسو يوليو 1887. وأصبح لها جمهورها المتحدث بها في روسيا وأوروبا الشرقية ثم أوروبا الغربية والأمريكيتين والصين واليابان.

إلا أن التجربة سرعان ما أثبتت عدم صلاحية هذه المحاولة وفشلت فكرة أحادية البعد الثقافي اللغوي،" فمفهوم الإبداع يرتكز على الخلق والابتكار في العلوم والآداب والفنون ويعتمد على الفكر المختلف وكسر الإطار التقليدي، ولذلك لا ينطبق على موازاة النماذج الحضارية المخالفة "[64]. و"يجب أن ينطلق حوار الحضارات من منطلق التنوع البشري الخلاق أولاً، وبحثاً عن أفق متوازن للتفاعل بين العالمي والوطني ثانياً، وقائماً على الاعتراف بالآخر وحقه في الاختلاف والتميز بخصوصياته ثالثاً، وداعماً لآفاق الحرية الفكرية والإبداعية رابعاً "[65].

يبدو أن قيام هذه المحاولة تأثر بالقصة الواردة في الكتاب المقدس حيث جاء في العهد القديم ما مفاده أن الله سبحانه وتعالى خلق الناس ليتحدثوا بلغة واحدة ثم قرر فرض التعددية اللغوية بعد شروعهم في إقامة برج بابل بما يمثله من تحد وعلو زائد في البنيان، فعندما نظر الله إلى ما فعلوه أوقف عملهم هذا وبلبل ألسنتهم وفرقهم في الأرض الواسعة. وتتفق هذه القصة مع الأسطورة المشهورة الواردة في كتب التاريخ التي تروي أن الناس كانوا يتحدثون بلغة واحدة هي اللغة البابلية حتى زمن النمرود

الذي طلب أن يبنى له معراج عظيم للسماء ليرى رب إبراهيم النبي حينذاك إلا أنه عندما صعد خر السقف عليه وعلى الناس معه مما جعلهم في حالة ذهول واضطراب وخوف نتج عنها بلبلة ألسنتهم وتفرقهم في البلدان حتى أصبحت كل مجموعة تتحدث بلغة لا يفهمها الآخرون.

وقد وصل أكثر علماء اللغة إلى نظرية علمية تفيد بنشوء الحضارة البشرية الأولى بعد الطوفان في العراق بين نهري دجلة والفرات ووجود لغة واحدة للناس هي اللغة البابلية في زمن سيدنا إبراهيم عليه السلام أواخر الألف الثالث قبل الميلاد، وقصته مع النمرود وما حصل فيها من مواجهات والتي عرج عليها القرآن الكريم بقوله تعالى: " قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون" (النحل آية 26). ثم مع تزايد البشر والعمران بدأ الناس يتفرقون في الأرض في هجرات جماعية طلباً للعيش وبحثاً عن الرزق كما هو الحال في كل زمان، فتكونت حضارات كبرى مشهورة حيث الاستقرار في مناطق وادي النيل وبلاد الصين. وبدأ الناس يجدون أشياء جديدة في هذه المناطق الجديدة فيسمونها بمسميات جديدة خاصة بهم وبمنطقتهم إلى أن توسعت هوة الاختلاف مع مرور السنين وتفرعت عن كل حضارة لغات حتى تبلبلت ألسنة الناس هنا وهناك.

ابن عربي مترجم الأشواق

لقد جاء في كتاب الله الحكيم قوله تعالى:" وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم فيما فيه يختلفون" (يونس آية 19). وهذا ما جعل الشيخ الأكبر محيي الدين **ابن عربي** صاحب "ترجمان الأشواق" يقول في تفسيره للسانيات بأن اللغة هي سر الوجود وبأن الفعل اللغوي الإنشائي كان هو الحدث الأول، فالكلام صفة نفسية رحمانية مشتقة من الكلم وهو الجرح ولهذا فإنها مؤثرة كما أثر الكلم في جسم المجروح.

إن الكلامَ عباراتٌ وألفاظٌ وقدْ تنوبُ إشاراتٌ وإيماءُ
لولاَ الكلامُ لَكُنا اليومَ في عدمٍ ولم تكنْ ثَم أحكامٌ وأنباءُ
وإنهُ نَفَسُ الرحمنِ عَينَه عقلٌ صريحٌ وفي التشريعِ أنباءُ
فيهِ بدتْ صورُ الأشخاصِ بارزةً معنىً وحِسًا وذَا البَدْوُ إنشاءُ
فَانْظُرْ تَرَ الحكمةَ الغراءَ قائمةً فيهَا لِعَينِ اللبيبِ القلبِ أشياءُ

"ولولا الوسيط اللغوي لما كان هناك خلق(كون)، إذ لولا الواسطة لذهب كما قيل الموسوط، والأولية كما نفهمها عند ابن عربي أولية في الوجود وتقدم في الزمان، فالأمر على شريط التوالي الزمني

متقدم على الفعل. فهناك مطابقة نوعية بين الكلام والعالم لا من جهة الصدق والكذب لأنه ليس خبرا، بل من جهة أن الكلام هو عين الخلق والفعل لأنه إنشاء أو فعل إنشائي أدائي ".

لذلك ينتهي ابن عربي ومعه الإنسان الكامل والعارف إلى وجه جديد للتدين والاعتقاد تلخصه هذه الأبيات من ترجمان الأشواق(30):

لقد صار قلبي قابلا كل صورة فمرعى لغزلان ودير لرهبان

وبيت لأوثان وكعبة طائف وألواح توراة ومصحف قرآن

أدين بدين الحب أنى توجهت ركائبه فالحب ديني وإيماني

إنها نظرة تصلح أكثر لعالم اليوم الممزق بين أديان العولمة الجديدة، كإمكان مقاومة للعرقية والعصبية الاعتقادية بجميع أشكالها، والتي لا تزال إلى اليوم تشعل فتيل الحروب في مناطق شتى من العالم [66].

رائعة النبي لجبران

وفي العصر الحديث سطر أديب المهجر **جبران خليل جبران** رائعته "النبي"[67] باللغة الإنجليزية ونالت إقبالا هائلاً في ترجمتها إلى ما يزيد على 20 لغة. وأبدع فيها جبران من خلال 26 قصيدة شعرية وردت على لسان نبي سماه "المصطفى" وتضمنت رسالة المتصوف المؤمن بوحدة الوجود وتناول من خلالها العلاقات الإنسانية وأفكاره في الحب والزواج والحرية والرحمة والعقاب والدين والأخلاق والحياة والموت.

خاتمة

فتاريخ الحضارات ماهو إلا تاريخ اقتراض كل حضارة من غيرها عبر قرون مع محافظة كل حضارة على هويتها الأصلية. ويجمع الخبراء والمختصون بأن قريتنا الكونية لن تستمر إن لم تتعلم البشرية أن تعيش مع بعضها البعض وأن تحطم الحواجز التي خلقتها حول المجتمعات هنا وهناك. ولعل من سمات العولمة الإيجابية تقبل فكرة التعايش السلمي بسهولة أكثر مما مضى.

ولستذكر في الختام أبيات الشاعر الشيرازي الشيخ مشرف الدين بن مصلح الدين السعدي[68]، أحد النجوم اللامعة في سماء الأدب الإسلامي الذي كان تأثيره في الناحيتين الأدبية والأخلاقية لا حد له، ليس في فارس وحدها، بل في العالم أجمع. وقد وضعه الشعراء والنقاد في مقام الشاعر والمعلم والمفكر. وبلغت شهرته أطراف العالم، ونقلت آثاره في النثر والنظم إلى جميع اللغات الحية، وكانت محل إعجاب الأمم وتقديرها.

أبناء آدم أعضاء في جسد واحد منذ الأزل ومن البداية أتوا من أصل واحد

وعندما يشتكي عضو منها يتداعى له باقي الأعضاء بالسهر

إذا أنت لم تشعر بأسى الآخرين فإنك لست بابن آدم [69]

الهوامش

[1] قاموس لسان العرب.

[2] ديوان المتنبي ، العكبري ، 3: 385.

[3] ديوان المتنبي 4: 252. الجنة : الجن . ملاعب جنة (مناطق كثيرة، يسكنها جماعات مختلفو اللغات كأنهم جن لا يفهم الإنسان ما يقولون)

[4] د.أحمد حماد، الترجمة الأدبية بين قيود النص وحرية الإبداع، مجلة عالم الفكر، عدد 4، مج 30، إبريل– يونيو 2002، الكويت،ص240.

[5] د. أحمد صدقي الدجاني، عرب ومسلمون وعولمة، دار المستقبل العربي، القاهرة، 2000، ص 425.

[6] المصدر نفسه، ص 429.

[7] آمال فريد، إعداد المترجم للمشاركة في التنمية الثقافية، ص 285.

[8] د. جابر عصفور، حول المشروع القومي للترجمة، العربي، العدد 494، يناير 2000، ص 100.

[9] المصدر نفسه، ص 70.

[10] د. حسام الخطيب، ملامح في الأدب والثقافة واللغة، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1977، ص 334.

[11] بول شاءول، الترجمة من التفاعل إلى الفعل الثقافي، ص 201، 202.

[12] أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (وفاته 255هـ).

[13] جمال عبد الناصر، مجلة الفيصل، م. س. ذ. ص 26.

[14] محمد صقر خفاجة، الإلياذة لهوميروس، موسوعة تراث الإنسانية، مجلد 1، ص 322.

[15] جابر عصفور، مؤتمر الترجمة وتفاعل الثقافات، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2004، ص 42.

[16] د. حسن شحاته سعفان، كنفشيوس: الكتب الخمسة، موسوعة تراث الإنسانية، مجلد 2، ص 782.

[17] ابن قتيبة، طبقات الشعراء، ص 58.

[18] لويس شيخو، شعراء النصرانية قبل الإسلام، ص 219.

[19] ابن حجر العسقلاني، الإصابة، ج2/ ص 23.

[20] المبارك بن المبارك بن السعيد النحوي، أبو بكر الدهان (توفي 439هـ).

[21] محمد الفيروزابادي، البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة، ص 181.

[22] محمود حجازي، علم اللغةالعربية، ص 122.

[23] ابن عباس (توفي عام 68هـ).

[24] ستتكيفتش، العربية الفصحى، ص 130.

[25] عبد الله بن العباس، اللغات في القرآن، ص 30.

[26] ذكر لغات القبط والنبط والعبرانيين والسريان والأحباش، انظر ابن سلام، لغات القبائل الواردة في القرآن، ص 20، 44، 69، 105، 134، 135، 146.

[27] أبو عثمان الجاحظ، البيان والتبيين، ج2/ ص10.

[28] د.عبد الرحمن علي عوف، قراءة في الترجمة العبرية لمعاني القرآن الكريم،مجلة دراسات عربية وإسلامية، مكتبة الزهراء،القاهرة،1983.

[29] د.محمود الربداوي، أهداف ترجمات القرآن وأنماطها عبر التاريخ، مجلة التراث العربي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، عدد 6،98/ 2005

[30] ألف الجاحظ كتاب الحيوان قبل سنة 233هـ وأهداه إلى وزير المعتصم والواثق، الكاتب الشاعر الأديب محمد بن عبد الملك الزيات.

[31] المصدر نفسه، ص 137.

[32] المصدر نفسه، ص 227.

[33] د.عبد الوهاب محمد عبد العالي، معرفة العلماء العرب القدماء باللغات السامية، مجلة الساتل، العدد 1، 12/ 2006، مصراته، ص82.

[34] الخليفة هارون الرشيد (حكم من170–193هـ).

[35] المأمون (ت 218هـ).

[36] صالح الحمارنة، بيت الحكمة البغدادي وحوار الحضارات، مجلة النشرة، المعهد الملكي للدراسات الدينية، العدد 31، 2004، ص 9.

[37] المصدر نفسه ص 10.

[38] د. كمال اليازجي، معالم الفكر العربي في العصر الوسيط، ص 68، 69.

[39] د. محمد غنيمي هلال، الحياة العاطفية بين العذرية والصوفية، دار نهضة مصر، القاهرة، 1976، ص 174.

[40] عبد الله ابن المقفع (توفي 759 ميلادية).

[41] أحمد حسن الزيات، ص 396.

[42] ابن المقفع حكايات كليلة ودمنة قراءة جديدة في كتاب قديم، تحقيق د. عبد الوهاب عزام، ص 36.

[43] د. أمين عبد المجيد بدوي، جولة في شاهنامة الفردوسي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.

[44] أحمد حسن الزيات، تاريخ الأدب العربي، دار نهضة مصر، القاهرة، ص 395.

[45] حافظ الشيرازي (توفي 792 هـ).

[46] حافظ الشيرازي، ديوان العشق، نقله إلى العربية صلاح الصاوي، مركز النشر الثقافي "رجاء" مقدمة الدكتور محمد حسين مشايخ فريدني، ص 15، عن مقال للشاعر والناقد محمد علي شمس الدين، جريد الحياة، السبت 19/11/ 1994.

[47] المصدر نفسه، ص 1.

[48] الفارابي (توفي 339هـ).

[49] د. علي عبد الواحد وافي، دراسة حول " آراء أهل المدينة الفاضلة للفرابي، موسوعة تراث الإنسانية، ج 2، ص 572.

[50] خالد حسين أبو عمشة، تعليم اللغة العربية في الأندلس، ص 21–22.

[51] أبو حيان الأندلسي (توفي 745هـ).

[52] أحمد المقري، نفح الطيب، ج2/ ص 552، 553.

[53] خليل حلمي، دراسات في المعاجم واللغة، ص 415.

[54] أبو الوليد ابن رشد (توفي 595 هـ).

[55] ابن الطفيل (توفي سنة 581 هـ).

[56] السلطان أبو يعقوب يوسف سلطان مراكش (توفي سنة 580هـ).

[57] د. عبد الرحمن بدوي، حي بن يقظان، موسوعة تراث الإنسانية، مجلد 1، ص 213.

[58] موسوعة تراث الإنسانية، مجلد 1، ص 222.

[59] عبد الهادي التازي، تحقيق رحلة ابن بطوطة، مج 1، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 1997، ص 91، 88.

[60] المصدر نفسه، ص 98.

[61] المصدر نفسه، ص 101- 104.

[62] غيرمو غوستافينوغيانت، الرحالة الكدود ابن بطوطة، دار النشر المغربية، تطوان، 1950.

[63] د. أنور عبد العليم، نشأة الحياة على الأرض لأوبارين، موسوعة تراث الإنسانية، مجلد 2، ص 170.

[64] د. صلاح فضل في المؤتمر العربي الأوروبي للحوار بين الثقافات (باريس 15، 16 يوليو 2002).

[65] د. جابر عصفور في المؤتمر العربي الأوروبي للحوار بين الثقافات (باريس 15، 16 يوليو 2002).

[66] د. إدريس مقبول، اللسانيات الإشراقية عند ابن عربي، www.diwanalarab.com

[67] النبي (1923).

[68] الشيخ مشرف الدين بن مصلح الدين السعدي (606 – 690هـ أو 694 هـ). رابطة أدباء الشام. www

[69] Sa'di, M. 1979. The rose-garden (translated by E.B. Eastwick). Octagon, London, UK.

المراجع

- أحمد أمين، **فجر الإسلام**، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ط 10، 1965.
- أحمد حسن الزيات، **تاريخ الأدب العربي**، دار نهضة مصر، القاهرة.
- أحمد حماد، **الترجمة الأدبية بين قيود النص وحرية الإبداع**، مجلة عالم الفكر، مج 30، العدد 4، إبريل – يونيو 2002، الكويت، ص 239.
- أحمد حماد الحسيني، **كتاب الحيوان للجاحظ**، موسوعة تراث الإنسانية، مج 2.
- آمال فريد، **إعداد المترجم للمشاركة في التنمية الثقافية**، ندوة عن د. أحمد حماد، الترجمة الأدبية بين قيود النص وحرية الإبداع، مجلة عالم الفكر، العدد 4، مجلد 30، الكويت، إبريل – يونيو 2002.
- أمجد الطرابلسي، **نظرة تاريخية في حركة التأليف عند العرب في اللغة والأدب**، مكتبة دار الفتح، دمشق، 1976.
- أمين عبد المجيد بدوي، **جولة في شاهنامة الفردوسي**، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.
- أنور عبد العليم، **نشأة الحياة على الأرض لأوبارين**، موسوعة تراث الإنسانية، مجلد 2، القاهرة.

- بول شاءول، **الترجمة من التفاعل إلى الفعل الثقافي**، من أبحاث مؤتمر الترجمة وتفاعل الثقافات، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2004.
- جابر عصفور،**حول المشروع القومي للترجمة**،العربي،العدد 494، يناير2000.
- جابر عصفور، **مؤتمر الترجمة وتفاعل الثقافات**، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2004.
- جمال عبد الناصر، مجلة الفيصل، م. س. ذ. ص 26.
- حسام الخطيب، **ملامح في الأدب والثقافة واللغة**، منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي، دمشق، 1977.
- حسن شحاته سعفان، **كنفشيوس: الكتب الخمسة**، موسوعة تراث الإنسانية، مج2.
- خالد حسين أبو عمشة، **تعليم اللغة العربية في الأندلس**، رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية العالمية، ماليزيا، 1997.
- السيد ياسين، **حوار الحضارات الغرب الكوني والشرق المتفرد**، هيئة الكتاب، القاهرة، 2002.
- شحادة الخوري، **دور المصطلح العلمي في الترجمة والتعريب**، مجلة علامات في النقد، المجلد السابع، الجزء التاسع والعشرون، جدة، سبتمبر 1998.
- شوقي جلال، **الترجمة في العالم العربي الواقع والتحدي**، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2004.
- السلام فزازي، **دور الترجمة في تعليم اللغات الحية**، مجلة علامات في النقد، النادي الأدبي الثقافي بجدة، مج 12، ج 47، مارس 2003.
- صالح الحمارنة، **بيت الحكمة البغدادي وحوار الحضارات**، مجلة النشرة، المعهد الملكي للدراسات الدينية، العدد 31، 2004.
- عبد الرحمن بدوي، **حي بن يقظان**، موسوعة تراث الإنسانية، مجلد 1، القاهرة.
- عبد الرحمن علي عوف، **قراءة في الترجمة العبرية لمعاني القرآن الكريم**، مجلة دراسات عربية وإسلامية، مكتبة الزهراء، القاهرة، 1983.
- عبد الهادي التازي، **تحقيق رحلة ابن بطوطة**، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 1997.
- عبد الوهاب عزام، **ابن المقفع حكايات كليلة ودمنة قراءة جديدة في كتاب قديم**، مجلة وجهات نظر، العدد 51، القاهرة، إبريل 2003.

- عبد الوهاب محمد عبد العالي، **معرفة العلماء العرب القدماء باللغات السامية**، مجلة الساتل، العدد الأول، مصراته، ليبيا، ديسمبر 2006.
- عفاف البطاينة، **الترجمة: تطويع أم تغريب للنص؟ تقاليد النوع الأدبي قبل وبعد الترجمة**، مجلة عالم الفكر، العدد 1، مج 32، يوليو – سبتمبر 2003، الكويت.
- علي عبد الوافي، **دراسة حول "آراء أهل المدينة الفاضلة للفارابي**، موسوعة تراث الإنسانية، جزء 2، القاهرة.
- عمر فروخ، **عبقرية العرب في العلم والفلسفة**، المكتبة العلمية، بيروت، 1952.
- فؤاد عبد المطلب، **الترجمة والبحث العلمي**، علامات في النقد، مجلد 7، جزء 29، السعودية، سبتمبر 1998.
- كمال اليازجي، **معالم الفكر العربي في العصر الوسيط**، دار العلم للملايين، بيروت، ط 4، 1966.
- محمد بلاسي، **الترجمة ومشكلاتها**، المجلة الثقافية، الجامعة الأردنية، العدد 66، كانون الثاني 2006.
- محمد شاهين، **إليوت وأثره على عبد الصبور والسياب**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1992.
- محمد صقر خفاجة ، **الإلياذة لهوميروس**، موسوعة تراث الإنسانية،مج 1، القاهرة.
- محمد غنيمي هلال، **الحياة العاطفية بين العذرية والصوفية**، دار نهضة مصر، القاهرة، 1976.
- محمود الربداوي، **أهداف ترجمات القرآن وأنماطها عبر التاريخ** ، مجلة التراث العربي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، العدد 98، حزيران 2005.
- نوال البيلي، **الترجمة في الوطن العربي: أزمة عابرة أم مزمنة ؟** عالم الكتاب، العدد 45، يناير 1995.
- **بحوث مؤتمر الترجمة وتفاعل الثقافات**، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2004
- **بحوث ندوة الترجمة في خدمة الحضارة**، جمعية المترجمين الأردنيين، عمان، الأردن، 2002.

- **دراسات وأبحاث الملتقى الدولي الثاني للترجمة،** مؤسسة الفكر العربي، عَمان، 27-2007/4/28.
- **المعرفة طريق إلى التعايش،** المؤتمر العربي الأوروبي للحوار بين الثقافات، أخبار الألكسو، عدد 14، 15، يوليو – أغسطس 2002.